إشارات التنزيل وجماليات اللغة في ديوان « بياض « للشاعر السعودي أحمد قران الزهراني استقراء شامل للديوان: قراءة نقدية تحليلية وصفية

مقدمة أ.د. فهد سالم خليل الراشد

سعت هذه الدراسة إلى قراءة وجدانية اتكأت على الإحساس بقيمة اللفظة المنتقاة، والمؤلفة من أصوات متجانسة عربيا، نسج الشاعر من هذه الكلمات جملا قصيرة وجملا طويلة، وبينَ بينَ، حرص فيها على تراكيب صحيحة في مبناها، طرّز بهذه الجمل لوحاته الفنية محققا المعنى الذي يريد، ترى ماذا يريد هو ؟ وماذا أريد أنا؟!

أردت بهذه الدراسة الوجدانية أن أبتعد عمّا يقوله الآخرون؛ فأقوالهم معروضة وكتبهم موجودة، وعهدي بالقارئ قد اطلع عليها، ولكنه حتما لم يطلع على ما أقول ما لم ينشر بعد؛ فها أنا ذا أدلو بدلوي وأنشر ما قلت ولا أملك أحقية رد ما سوف يقال.

والفضل لله عز وجل أولا، ثم لأهل الفضل المجلس الدولي للغة العربية في مؤتمرهم الرابع: مايو / ٢٠١٥ – دبي .

الدراسة

حينما جاءني ديوان شعر الشاعر السعودي / أحمد قران الزهراني، بغلافه الأسود، وقد عنون له (بياض) ، وقفت حائرا تارة ومتأملا تارة أخرى بين السواد والبياض أو بين البياض والسواد، وتساءلت ترى لماذا اختار الشاعر الغلاف الأسود وفي الوقت نفسه أطلق على ديوانه « بياض « ؟! لاشك بأنها سيميائيات تجذب الغواص الأدبي لكشف أسرارها، ومعرفة كنه ما تصبو إليه.

بعد قراءة الديوان أكثر من مرة لمست تلك الصبغة الدينية قد خيّمت على جُلّ القصائد في الديوان، ولعلي أستذكر ندوة أقمتها في الكويت ٢٠٠٣ بعنوان (موقف الإسلام من الشعر والشعراء)، من منظور قوله تعالى في سورة الشعراء « والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون « الآية: ٢٢٤و٢٢٥و٢٢٦و٢٢٧ . وقول عزّ من قائل « وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين « سورة يس: ٦٩، وفي سورة الحاقة قال تعالى « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون : آية: ٤١ .

وحريٌّ بنا هنا أن نفرق بين لغة القرآن الكريم ذلك الدستور السماوي المقدس والمشرّع الذي نزل بوحي إلى نبيّ، وبين لغة الشعر التي قيل عنها « انفعال. وتعبير عن هذا الانفعال . والانفعال يتقلب من حال إلى حال .. والنبوة وحي. على منهج ثابت، على صراط مستقيم ، يتبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كله، ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال .والنبوة اتصال دائم بالله، وتلق مباشر عن وحي الله، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله. بينما الشعر – في أعلى صوره – أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته. فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات وقد تهبط حتى تكون صراخ جسد، وفورة لحم ودم ! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس. هذه – في أعلى صورها – أشواق تصعد من الأرض وتلك في صميمها هداية تتنزل من السماء « ١

ولو تركنا لأنفسنا العنان في هذه المسألة لما استوعبت هذه الصفحة ما سنذكره من شواهد، لذا سأحاول جاهدا أن أذكر بعضا منها بإيجاز شديد؛ فقد مدح العباس الرسول

الكريم بقصيدة مطلعها « من قبلها طِبْتَ في الظِّلال وفي مُسْتَـــودع حيث يُخصَفُ الورقُ» فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: « لا يفضض الله فاك «، وروى أبو هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول: « أصدق كلمة – أو أشعر كلمة – قالتها العرب قول لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل «، وروى عبدالله بن عمر بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام « ٢

الشاعر السعودي / أحمد قران الزهراني ، واقتباساته من القرآن الكريم في ديوانه (بياض)

بدءاً من الإهداء:

(إلى ..

التي تساورني ذات اليمين وذات الشمال) ٣

اقتبسها من سورة الكهف آية ١٨ « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال «، وحينما يقلب الله عباده ذات اليمين وذات الشمال فإن ذلك يعني أن أمرهم موكل إلى الله تعالى فهو ألطف بعباده، وهو الذي يشملهم بعطفه ورعايته، ولعل ذات اليمين لرؤية طريق الحق والخير والبركة والظفر بالجنة، وذات الشمال الاطلاع على الطريق الخطأ وما يحفه من شرور، وهو المؤدي إلى جهنم، أو للتأكيد بأن الخير والشر خصلتان كامنتان في الإنسان وعليه التعامل معهما بحذر شديد، وتوظيف خصلة الخير بما يليق بها، وتوظيف خصلة الشر بالعدل والقسطاس، قال تعالى: « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ..» سورة البقرة: ١٩٤

ولعل الشاعر السعودي عندما يقول في إهدائه هذا الديوان لأهل بيته، أراد معنى الاحتواء الشامل والكامل في الحياة الزوجية، وإنه يستلهم من المرأة المؤازرة لزوجها. حياة هادئة تترك له العنان لأن يسبح في فضاء مفتوح مليء بجماليات اللغة وسحر البيان.

لننطلق مع أول قصيدة في ديوانه بعنوان (الطريق) الذي يجسّد فيها واقع أمتنا المزري، تهافت واضح في المواقف الدولية، انبطاح لأنظمة الغرب، خنوع لقرارات جائرة ضد العرب، الرضا بالفرزدقة، حيث يقول:

(هذا الطريق الصعبُ

فوق جباهنا شقوا الطريقَ إلى جنينَ

وكبلونا بالوعودِ وبالكلامِ

وبعض أرقام

حصيلةُ ضربِها صفرُ اليدين

وقسمةٌ ضيزى) ٤

مقتبسة من سورة النجم آية ٢٢ « تلك إذا قسمة ضيزى « ، نعم إنها قسمة غير عادلة، سعى الغرب لإجبارنا على قبولها وكأنه يتصدق علينا، بوعود يخيّل للناظر إليها أنها براقة، وإذا بها « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء « سورة النور: ٣٩ ، صيغة بكلام ظاهره عسل وباطنه مر كالحنظل الذي أكله ملك كندة مُكرها.

شاعرية مؤججة، وعاطفة ملتهبة، لقد مرغتنا الأيام، وطحنتنا الرّحَا، اعتلج الهم في أفئدتنا، وحسرتنا على ما فرطنا تغتالنا يوميا كمدا وقهرا؛ كل ذلك ظهر في قصيدته (حداد) التي قال فيها:

(قفوا ..

ههنا نقرأ الفاتحةْ

قفوا ..

فالذبيح العروبة

أمي ..

وهذا اليتيم

أنا ..

أنت ..

نحن الذين استباحوا الحديث

ولاذوا إلى الصمت حيناً

وحيناً إلى اللغة

الجارحةْ) ٥

الفاتحة أو السبع المثاني سورة ذات فضل عظيم عند الله سبحانه وتعالى، وفي آياتها الكريمة رقية للمؤمن، سورة الحمد هي فاتحة القرآن الكريم، تقرأ على الميت ترحما، قرأها الشاعر السعودي على ضمير أمتنا العربية الذي ذبحناه بأيدينا، لعل وعسى أن يكون قبره بردا وسلاما؛ فلا جدوى من إحيائه مرة أخرى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم « سورة الرعد: ١١ . إنه ليس زماننا أيها الشاعر، وقد قيل « المعركة التي لا تضمن لنفسك كسبها يجب عليك تأجيلها « ٦ .

وكأني به يعيد حلبة الخلافات النحوية ويعيدنا إلى الظاهرة اللغوية المسمى بالفرزدق في بيته المشهور حينما أدخل (أل) التعريف على الفعل المضارع وهي من علامات الاسم حيث يقول:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته
ولا البليغ ولا ذي الرأي والجدل ٧

والشاعر السعودي يقول:

(قفوا ..
نشجب الذل
والموت
والساسة اليستغلون من ضعفنا)٨

وكأنه أراد أن يقول : الساسة الذين يستغلون من ضعفنا .

ويتأرجح شاعرنا فتراه مدافعا منافحا تارة، ومستسلما قانعا تارة أخرى، يبث الشكوى، يئن من جرح غائر، ماذا عسى أن يفعل، لقد فقد توازنه العروبي فقصُرت حيلته؛ ها هو التمزق طال أجنحتنا، والخونة باتوا بين ثنايانا:

(قفوا ..
ثم عودوا إلى رشدكم
فالجواسيس حولي .. كثيرٌ
ولا تبرحوا صمتكم
واحذروني
فما هذه غير أضغاث حلم
تعيس
أتتني تفاصيله
ليلة البارحةْ) ٩

مقتبسة من سورة يوسف آية ٤٤ « قالوا أضغاث أحلام «؛ لعمري إنها الحقيقة التي يجب أن نتجرعها ونقنع بها، فعذرا أيها الشاعر السعودي، لأنها لم تكن يوما أضغاث حلم، بل هي رؤية صادقة لحالنا التعيسة المزرية، مثلما كانت رؤية صادقة أفتى بها سيدنا يوسف عليه السلام لسنوات عجاف.

أمنيات شتى جسّدها الشاعر! فهل تتحقق؟ أصبحنا نحاكي الماضي ونتغنى به، ولكن هل الماضي يعود؟ ! خيبة الأمل واضحة لدى الشاعر ونظرة التشاؤم تسيطر عليه نرى ذلك في قصيدة « قيظ « حيث يقول:

(لقد عزني في الخطاب
له مهجتان وسبعٌ وتسعوووون ..
لي واحدةْ
له مطلعُ الشمسِ من غربها
ولي لفحُها
والهجير
لي النارُ في صورة خامدةْ) ١٠

مقتبسة من سورة ص آية ٢٣ « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب « . ترى لمن يختصم الشاعر هنا؟ ولمن يبث همومه وشكواه؟ إن كان الشاعر ومنذ العصر الجاهلي هو لسان قومه، وهو المدافع عن حماهم، والمنافح عن رباهم بكلماته المصقولة كالسيف المهند، وجمله النافذة كالقناة المجوفة، فهل معنى هذا أن يختصم الشاعر السعودي من شاعرتيه، تلك الملكة التي وهبها الله له، هل يراها الشاعر السعودي نعمة أم نقمة؟ لعل شاعرنا أراد أن يقول إنني وغيري من شعراء أبناء جلدي العروبي المعنيون في الخطاب، المعنيون في الدفاع عن هذه الأمة، ولكن كيف لنا ذلك وبيننا وبينهم فجوة رقمية كبيرة من العسير اللحاق بها، وهناك بون شاسع يصعب تقصير مسافته، وهناك هوة عميقة استحالة ردمها والحال هذه.

إنها الموضوعية التي يطرحا الشاعر السعودي، نعم: كيف لمثل هؤلاء الشعراء المبرّزين أن ينفخوا من روح الحياة في جثة هامدة لا حول لها ولا قوة إلا بالله العظيم من جسد لا يسعى إلى التطبب، ولا يريد الشفاء.

لقد استطاع الشاعر السعودي أن يحقق الأسلوب التعجيزي دونما استخدام أدواته وأغراضه وهي مهارة بلاغية في علم المعاني حسب ظني تحسب للشاعر السعودي.

لجأ الشاعر السعودي/ أحمد الزهراني، لألفاظ القرآن الكريم يقتبس منه، ويوظف ألفاظه على ما يعانيه من حرقة ومرارة يتجليان في إحساساته، وتدفقه الشعري، مصورا تلك الانتكاسة؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر يقول في قصيدة « قيظ «:

(له وردة من حدائق عيني
ولي أرذلُ العمرِ) ١١

اقتبسها من قوله تعالى في سورة النحل آية ٧٠ « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر «، لقد حذرنا الله عز وجل ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم من مغبة التقدم في السن والانزلاق في أرذل العمر، وجعلنا نعوذ به عز وجل من شر هذه المرحلة العمرية الصعبة، إن أرذل العمر هي مرحلة هرمية تصاعدية وتنازلية؛ فمن حيث بدأ سوف يعود. إن شيخوخة هذه السن مرحلة حرجة جدا يرجع بها الإنسان إلى عقلية طفل صغير بتصرفاته وسلوكه بهيئة شيخ كبير في تجاعيده وشيبه، الأمر الذي لا يليق به وبمن حوله من أفراد أسرته أعاذنا الله ونجانا من الوصول إليها .

إن أرذل العمر إنما يصاب به ضعفاء الإيمان بالله تعالى، وعباد المال، وأصحاب النفوس الشريرة،

والنظرة الضيقة لسنة الحياة، لربما أراد الشاعر أن يجنبنا هذه المرحلة العمرية التي لا تليق بأمتنا، ويحذرنا من نهاية حتمية في محيطها، وقديما قال المتنبي في عجز بيته الشهير (يا أمة ضحكت من جهلها الأمم).

والشاعر السعودي حينما يحذرنا من مغبة هذه المرحلة، إنما أراد لنا أن نتجاوزها بالقناعة وبتماسكنا وتعاضدنا وبحبنا لبعض؛ ففي ذلك كله تكمن قوتنا واستمرار حياتنا .

أراد لنا الشاعر السعودي أن نعيش ونهنأ في كنف القرآن الكريم ذلك البلسم الشافي والمداوي من كل آفة اجتماعية، فمن يقرأ القرآن الكريم في تبصر وبصيرة يرى أنه يسير أمامك يوميا لينير إليك طريق الحق والصواب، ويجنبك طريق الخطأ والعقاب - سبحان الله – إنها مواعظ وحكم وقصص وعبر، إنها الحياة تتجلى في أعلى صورها، حياة شابة فتية تبدأ بها وتلاقي ربك على رضاها فهي من مرضاة الرب جل وعلا بما كتبه وخطه لك أيها الإنسان.

يقول في عجز بيت نظمه على الشعر العمودي:

(نم في عيون الحزن لا تخش القذى
واخفض جناحَ الذُّلِّ حتى تُحتذى) ١٢

اقتبسها من قوله تعالى في سورة الإسراء آية ٢٤ « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة «. إنه العفو والتسامح فيما بيننا، وليس أي عفو؛ بل هو مصداقية العفو، إن مصداقية العفو ليست بالعفو أو المسامحة؛ فكلنا قد يعفو ويسامح، ولكن تظل في القلب نقطة سوداء أو رمادية اللون لا تريد التعامل مع من نسامح أو من نعفو عنه، ولكن مصداقية العفو هي أن نسامح ونعفو ونتصافح لكي نزيل هذه النقطة السوداء، ونمحو آثار اللون الرمادي، ليحل محلها اللون الأبيض الناصع البياض، قلوب طاهرة وصافية ومطمئنة وراضية ومرضية بحكم الله وقدره .

أن تكون ذليلا لوالديك اللذين رباك وسهرا عليك وبذلا الغالي والنفيس من أجل إسعادك؛ فهذا لا ينقص من شخصك شيئا، ولا يجرح كبرياءك، ولا يمس بكرامتك، بل سوف يعزز شيمك كإنسان يعرف حق الأم والأب، قال سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام:» قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين « الصافات: ١٠٢ . فأمك هي في معناها المجازي أرضك وعرضك وأمتك العربية الإسلامية، وأبوك في معناها المجازي هم ولاة الأمر طاعتهم من طاعة الله عز وجل قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم .. «، ولربما جناح الذل الذي قصده الشاعر هنا هو أن تكون متعاونا مشاركا في بناء هذه الأمة التي كانت ومازالت خير أمة أخرجت للناس، ولعل جناح الذل الذي عناه الشاعر السعودي في هذه القصيدة أن تكون فردا مرنا في تعاملك مع الغير، أن تكون فردا فاعلا منتجا في المجتمع؛ فلا ضير في تقديم بعض التنازلات في سبيل استمرارية الحياة، والمحافظة على روح الأسرة الواحدة، فمهما اعتنقت من أفكار أو انصهرت في بوتقة إيدلوجيات غربية أو تأثرت بمن هنا وهناك؛ فهذا لا يعني أن تنظر إلى الناس من عل، قال تعالى: « إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا « الإسراء: ٣٧ .

ولعل لجوء الشاعر إلى استخدام الألفاظ القرآنية يمنحه بصيصا من الأمل الذي فقده في هذه الزخم من التيارات والأحزاب والمذاهب والأيدلوجيات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وربما تخفف من وطأة خيبة الأمل التي مُني بها جرّاء ما يراه من حال الأمة العربية الإسلامية (حرب، قتل، ضرب، قهر، قمع، إرهاب، اضطهاد، استبداد، استعباد ..إلخ)، والسؤال هنا كيف للشاعر السعودي الزهراني أن يوظف كل ذلك في شعره؟ إنه حمل كبير جدا، نشفق عليه منه، ولكن الشاعر السعودي يثبت بأنه قادر على توظيف ذلك، وبأن لديه أدواته الخاصة وملكاته كشاعر مقتدر يتمتع بحس مرهف وعاطفة جياشة ونظرة إلى نتيجة حتمية كان يصبو إليها، أتحسسها - ظنا - من خلال قراءتي لديوانه؛ وهي متمثلة بقوله تعالى في سورة الرعد آية ١١ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. «

يقول في قصيدة « مشكاة «

(وجهُك، والحمىّ، وبقايا أوراق التوت
وصمتي وجموحي
آياتٌ في سِفْرِ التكوينْ
وجهُك .. إعصارٌ ..

يجتاحُ الغربةَ والمنفى ومسافاتِ التوطينْ) ١٣

وها هو يلمح إلى أول سفر من أسفار موسى الخمس وهو سفر التكوين أو بداية الخلق ، الذي جاء فيه (في البداية خلق الله السموات والأرض، وروح الله قبل ذلك كانت ترفرف فوقهما) والديانات السماوية مكملة لبعضها البعض.

إن شاعرية الشاعر لا تقتصر على ما يتمتع به من إحساسات مرهفة، أو عاطفة جياشة متدفقة، أو قدر من التحنان، أو عوالج نفس تواقة إلى الإصلاح، بل الأكثر من ذلك إذاما صقلت بثقافة عالية وواسعة كثقافة الشاعر السعودي أحمد قران الزهراني، وثقافة الشاعر السعودي لم تقتصر على المعلومات وتنوعها أو تعددها بل على شراهة في القراءة والمطالعة؛ فمن يرى ألفاظه الجميلة الرنانة، وانسياب جمله الأنيقة المستوفاة لقواعدها، يعلم جد العلم بأن الشاعر السعودي يعبُّ الكتب عبًّا؛ فقد تبحر في جماليات اللغة العربية ذات التراكيب النادرة، وأخذ يغرف منها كما يغرف جرير من بحر اللغة؛ فهو يصف وجه الحبيبة ولربما لمح الشاعر حالة أمته العربية الإسلامية باللون الأحمر الدامي وليس القاني، مما يثير شكوك الشاعر خوفا وقلقا عليها، ويتأمل هذا الوجه بهذه الحمرة التي تصل إلى درجة قريبة من السواد ما يعنى أنها محملة بالآلام والجراح ومشبعة بالمآسي، وكأنه في حيرة من أمره تجاهها مستفسرا عمن خلق الكون في سفر التكوين.

ولعل عنوان هذه القصيدة (مشكاة) قد حمل من السيميائيات ما يجعلك ترى في اختياره لهذا العنوان شفافية التعامل ومصداقية الطرح ونورانية المستقبل، ويسترسل في القصيدة ذاتها حيث يقول:

(يا هذا الفارهُ
حدّ الموت، وحدّ البعث
وخارج عقلٍ وجنونْ
يا هذا الآتي مخضراً كالفجر إذا ما ودّع مختالاً
شفعاً أو وترا)١٤

اقتبسها من قوله تعالى في سورة الفجر، آية ٣ :» والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر «، إنك تودع الليل في نومتك الصغرى بركعتي شفع، وركعة وتر، فما الحكمة من ذلك؟ فالعدد اثنين إنما هو صحبة مع الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، متمثلة بالشفع الذي سوف يشفع لك ولأمته يوم القيامة عليه أفضل الصلاة والسلام، وأنت في النهاية مع الله الواحد الأحد الفرد الصمد، متمثلا بالوتر، وإن كانت هناك صحبة في الدنيا تحفك من كل جانب، فأنت في النهاية سوف تدفن وحيدا، وتلاقي ربك وحيدا، قال تعالى في سورة عبس، آية رقم: ٣٤،٣٥،٣٦،٣٧ :» يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه،وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه «.

وفي القصيدة ذاتها ويقول:

(ينداح فيشنقُ من وله بردَ الحرْمان
وينفذ في مشكاة من حمإ مسنونْ) ١٥

يستعير الشاعر السعودي من ألفاظ القرآن الكريم ثلاث كلمات. كلمتان من سورة الحجر، آية ٢٨ « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون « .. وكلمة من سورة النور، آية ٣٥ :» الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح « فيزاوج المعنى في تجلياته العليا، ليرتقي بها في فضاء واسع بعيد، ومضات يلمعن في الدجى، أو قل شهب خاطفة غير مستقرة. إنه ينفث رقة مشاعره وصفائها، لتحترق بنار البغض والكراهية حينما تلامس أرض الواقع ف« من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم « ١٦

أما في قصيدة « سنابل « التي نظمها على الشعر العمودي رائية القافية، مضمومة الروي؛ فقد صوّر بها بؤس هذه الأمة، وضعف حيلتها، حين دارت عليها صروف الدهر، فمن ينقذها من براثن الزمن وعويل المحن؟ أين السيف البتار ليناهض التتار؟ لقد قتلت أمنيات العربي وبقيت آماله طريحة جرحى، وأفكاره متناثرة صرعى، وئدت أحلامه. حطت ركاب الشاعر في واحة الشعر بعد أن تبعثرت أوراقه هنا وهناك، فلم يجد وسيلة يجسّد بها حال هذه الأمة وقد أعياه الأنين سوى الشعر طريقا لا يسير عليه بل يترنح على جانبيه محاذيا له، فراح شاعرنا السعودي الزهراني يعرج في شعره إلى عنان السماء متضرعا ومستنجدا، ويجنح بقريحته إلى ضمائر عربية لعلها تستفيق من سباتها العميق .. يبدأ قصيدته ببيت مرصع يقول:

(مطرٌ و وجهُ طفولة نَضرُ .. وسنابل الأحلام تحتضرُ) ١٧

ويعود مرة أخرى ينهل من ألفاظ القرآن الكريم حيث يقول:

(حسناء .. سؤلُك ماج في كبدي
ناراً تلظّى فوقها الضجرُ) ١٨

اقتبسها من سورة الليل آية ١٤ « فأنذرتكم نارا تلظى «؛ فهو يمازج بين المعاني كعادته، فيجعل المعنى المشترك من مثل « ولي حميم « « وماء حميم « إنما هو الحرقة والشوق؛ كذلك ههنا فإن نار الشوق واللهفة التي تسعر فؤاد الحبيب للقاء حبيبته، وسؤالها عن حاله وعن لوعة الفراق، وشغف اللقاء، إنما يقاسمها معنى قوله تعالى في سورة ق، آية ٣٠:» يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد «، والحبيب مهما ارتوى من قرب حبيبته، وقرت عينه بوجودها قريبة منه، فإن الظمأ يعاوده بعد حين، والنار تأجج ثانية بفراق الحبيبة وضجر الحبيب.

في قصيدة « ارتكاسات « يقول:

(على ثرى أخي أسيرُ
ليس لي سواه كي أسيرَ فوقه
كأنه حمّالة الحطب)١٩

مقتبسة من سورة المسد، آية ٤ « وامرأته حمّالة الحطب «، يتجه ظني أن الشاعر السعودي لم يوفق في تركيب هذه الصورة داخل هذه اللوحة، ولربما – وإن كنت لا أرى ذلك – ولكن كما يقال « المعنى في قلب الشاعر «، ولا يعني هذا أن نحجم عن تأويل ما لم نستطع عليه حفرا. بداية لو أمعنا النظر في عنوان هذه القصيدة (ارتكاسات) فهي (انتكاسات) بالمعنى، أي خفق ولم يحقق ما يطمح به، ثم بدأ القصيدة بـ (على ثرى أخي أسير .. تائها ومرغما ومقتصد .. على ثرى أخي .. صليت ركعتين .. فيهما تلوت آية الكرسي جاهلا .. وسورة المسد)، هذه اللوحة الفنية الأولى من هذه القصيدة وتأتي بعدها مباشرة اللوحة الفنية الثانية بيت القصيد، ومعنى هذا – في ظني – أن الشاعر السعودي أراد أن يحقق جرسا موسيقيا خارجيا في إيقاع القصيدة، فجاء ذلك على حساب الموسيقى الداخلية فاضطرب المعنى. أو لعل الشاعر السعودى تعمّد ذلك تلميحا منه إلى السياسات المبعثرة أو سياسات الترقيع التي استشرت في الوطن العربي؛ فتمزيق المعنى وإعادة رقعه ينعكس سلبا على اللوحة الفنية الشعرية، فتصبح لقمة سائغة لذئاب النقد الذين يقتاتون على ضبابية اللوحات.

ويطلق الشاعر السعودي أحمد قران الزهراني، صرخة مدوية للمجتمع الدولي الذي أهمل الرعاية والعناية بالأطفال، هذا الشعور الذي شاطر به الطفل ينبع مما يحمله في قلبه من إنسانية وأبوية مفعمة بقدر كبير من التحنان؛ فلا يمكن مضاهاة الألم الذي يشعر به الأطفال المحرومون من أبسط مقومات الحياة أكلا وشربا وكسوة لا أكثر من ذلك.

يقول في آخر لوحة فنية من هذه القصيدة:

(ويحرق الأطفال
والجفاف في عيونهم
صحائف الحصار والردى
وبعض أوراق قديمة
من سيرة الكذب
ويلمحون كسرة الرغيف في فم العرب
ويقرؤون « قل هو الله أحد «) ٢٠

يا من توحدون الله الفرد الصمد، هلا قاسمت هؤلاء الأطفال كسرة الرغيف، هلا وفرتم لهم العيش الرغد ؟

و يتألق الشاعر السعودي / الزهراني، في قصيدة « طقوس الحجارة « برسم لوحة تجسّد البطولات الفلسطينية، إنها المقامة الفلسطينية الباسلة، إنها الانتفاضة الخالدة، إنهم أطفال الحجارة الصامدون المرابطون.

انطلق شاعرنا من شاعرية متقدة، تلامس قامة الفلسطيني الشاهقة في بطولاته ونضاله ضد الصهاينة المغتصبين لأرض فلسطين، والمدنسين للمسجد الأقصى الشريف ولمسجد عمر، والمدنسين لكنيسة القيامة وكنيسة رقاد العذراء وكنيسة الصعود.

إنه البراق الذي حمل أشرف الخلق صلوات الله وسلامه عليه، من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في القدس، وعرج به إلى السماء، إنه روح القدس جبريل الأمين عليه السلام الذي هبط على مريم العذراء عليها وابنها السلام، من السماء إلى الأرض، مسافات طويلة، وأماكن شاهقة وصل إليها الفلسطيني رجلا وامرأة وطفلا ببطولاتهم الباسلة، حيث يقول:

(شاهقا..
حين أزهقت روحا
تبدت « براقا «
تسامى بروح القدسْ

شاهقا..
حين حولت « بلفور « طعما
ولقنت من يرفعون الشعارات
درس النبوءات
في أرض غزة
أو نابلس) ٢١

ولكن هل ما يستشرف به الشاعر السعودي يعد نظرة تفاؤل أم بريق خاطف سرعان ما يغيب، وتبقى الحال على ما هي عليه، حيث يقول:

(شاهقا ..
لم تمت أيها الطفل
ما مات من زلزل الأرض
من تحت أقدام
من قتلوا الأنبياء
وأسدى الحياة
لمن يسكنون القبور
ومن يصدرون البيانات والشجب
والمخبرين العسس
شاهقا ..
لم تمت يا حفيد النبيين
هذي عهودٌ
فبلغ « سناء « الرسالة عنا
ونبئ « صلاحا «
فما مات من صير
الحجر المقدسي قبس) ٢٢

سؤال للعرب وللمسلمين وللعالم أجمع: هل ولادة طفل فلسطيني له حق العيش وحق العناية الصحية وحق اللعب وحق التعليم وحق التأمينات الاجتماعية أسوة بغيرهم من أطفال العالم؛ يعتبر خطيئة ارتكبتها الإنسانية بحقه ؟!

أطفال فلسطين على وجه العموم وأطفال القدس وغزة على وجه الخصوص، يتعرضون يوميا للحرمان وللامبالاة الدولية والإهمال المجتمعي، والتشريد والتهجير على أيدي الغزاة الصهاينة المتغطرسين.

أطفال لم يغترفوا ذنباً ناموا آمنين مطمئنين بأحضان ذويهم، استيقظوا فلم يجدوا أمّاً ولا أباً ولا بيتاً ولا لعبة ولا قلماً ولا كراسة ولا مدرسة ولا ملابس تسترهم، لم يجدوا من يأويهم ومن يكسوهم.

الخاتمة

إلى هنا نقف ونترك للقارئ الكريم التبحر في ديوان الشاعر السعودي / أحمد قران الزهراني ، ليدرك مدى عمق شاعريته، وصدق عاطفته، ودفء وجدانيته ..

لقد حقق لنا الشاعر السعودي مسمى « الشاعر المثقف « واسع الاطلاع، غزير المعرفة، والذي ينضوي – بلا شك – تحت مصطلح « المثقف العضوي « الذي يتأثر ويؤثر بمحيطه، ويتفاعل مع قضاياه، سواء أكان ذلك على المستوى الوطني أم القومي أم الدولي. لمسنا ذلك من خلال موضوعات ديوانه « بياض « الذي نجح بتحريك المياه الراكدة، وتطهير المياه الآسنة من لوثة الأفكار الدخيلة على مجتمعنا، والتي تسعى لهدم عاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا، واستطاع أن يطرح أفكارا جديدة قائمة على العدالة الاجتماعية وعلى احترام ثقافة الغير من منظور محلي وقومي وعالمي.

الإحالات والمصادر

١ – انظر تفسير سيد قطب في ظلال القرآن : موقع إلكتروني (المكتبة الشاملة)

٢ – انظر تفسير القرطبي لسورة الشعراء. موقع إلكتروني (المكتبة الشاملة).

٣ – ديوان « بياض « نشره المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء – المغرب – الطبعة الأولى ٢٠٠٣ ، عدد الصفحات ٩٦ ، ضم ثماني عشرة قصيدة .: ص ٧ .

٤ – الديوان: ص ١٠

٥ – الديوان: ص ١٥

٦– القبر المجهول أو الأصول، رواية موريتانية، أحمد ولد عبد القادر، إصدارات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٣ ، ص ١٠٤

٧– انظر:الظواهر النحوية في شعر الفرزدق، تأليف: د. فهد سالم خليل الراشد، دار الجائزة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى ٢٠١١، ، ص ٨٣ .

٨ – الديوان: ص ١٦

٩ – الديوان: ص ١٦ و ١٧

١٠ – الديوان: ص ١٩

١١ – الديوان: ص ٢٠

١٢ – الديوان: ص ٢١

١٣ – الديوان: ص ٢٥

١٤ – الديوان: ص ٢٦

١٥– الديوان: ص ٢٧

١٦ – قنديل أم هاشم وقصص أخرى، يحيى حقي، إصدارات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٣ ، ٧٤ و ٧٥ .

١٧ – الديوان: ص ٣٧
١٨ – الديوان: ص ٣٨
١٩ – الديوان: ص ٤١
٢٠ – الديوان: ص ٤٤
٢١– الديوان: ص ٦٧
٢٢ – الديوان: ٦٧ و ٦٨

الشاعر في سطور :

- أحمد محمد آل قران الزهراني .
- يعمل حاليا في وزارة الثقافة والإعلام – جدة .
- المشرف على الشؤون الثقافية في مجلة الإعلام والاتصال .
- من مؤلفاته (ديوان شعر بعنوان « دماء الثلج « ، كتاب نثري بعنوان « امرأة من حلم « ، كتاب بعنوان « الرفض والقبول « .